# موقع الإسلام في صراع الحضارات

محمد السمّاك

لم تكد الحرب الباردة تضع أوزارها حتى بادر المفكرون والمنظّرون إلى وضع تصورات جديدة حول أسس سياسة ما بعد الحرب الباردة، وحول القواعد التي يمكن أن تقوم عليها استراتيجيات المستقبل.

لم يحدث السقوط الشيوعي والتمزق السوفياتي بسرعة كبيرة فقط، بل حدث قبل توقعه أيضاً، لذلك وجدت عملية التنظير لمرحلة ما بعد هذين السقوط والتمزق نفسها تلهث وراء المستجدات والتطورات التي سرعان ما عصفت بالمجتمعات المختلفة في كل أنحاء العالم.

اتخذت هذه العملية، ولم تزل، طابعين أساسيين. الطابع الأول هو المبادرة إلى وضع معادلات جديدة لنظام عالمي جديد. أما الطابع الثاني فهو محاولة وضع تفسير احتوائي للتطورات الجديدة بحيث يكون التفسير في حد ذاته إطاراً لاستراتيجية النظام الجديد.

منذ خمس سنوات، نشر فرانسيس فوكوياما مقالته التي اعتبر فيها أن الديمقراطية الليبرالية قد انتصرت وأنَّ هذا الانتصار يشكل نهاية التاريخ[1]. ورغم أن هذه النظرية كانت موضع نقاش أكاديمي واسع النطاق، فلم تؤخذ أساساً لبناء استراتيجية سياسية جديدة.

---

(1) ألان ريان: البروفسور هيجل في طريقه إلى واشنطن، ترجمة محمد السماك، الاجتهاد، العددان 15 ـ 16، السنة الرابعة، ربيع وصيف 1992، ص 277.

ثم جاءت نظرية توفلر[1]. في هذه النظرية يرى أنّ الثروة الحقيقية في حضارة الموجة الثالثة (الموجة الأولى الزراعية والموجة الثانية الصناعية) هي المعرفة: «وتشمل المعرفة هنا المعادلات العلمية والمعلومات التقنية، إضافة إلى الثقافة والقيم. وهو يرى أن المعرفة سوف تتحكم بانتاج الثروة من خلال تقليلها من أكلاف العمل والمواد الأولية والمستلزمات المكانية والمالية للإنتاج. ومن سمات نمط الإنتاج هذا: تجزؤ عملية الإنتاج، وتنوع المنتجات، وتزايد الأسواق الصغيرة، وتحول مفهوم العمل، وتسارع وتائر الإنتاج، وتعقد مستويات التكامل والإدارة. وحيث إن اقتصاد الموجة الثالثة لم يزل في طور تجلياته الأولية، فإنّه سيواجه تعارضات وتوترات محلية ودولية قبل أن يسود كونياً. وهذا يعني ضرورة تجاوزه عقبات عدة هي من بقايا الموجة الثانية، كالحواجز القومية ومخاطر التلوث البيئي والهجرة إلى الشمال وتزايد النمو السكاني[2].

ويلتقي توفلر مع صموئيل هنتنغتون[3] في اعتقاده «أنّ المناطق التي تحقق نمواً اقتصادياً سريعاً (الصين ـ كوريا ـ ماليزيا وغيرها) تشكل بؤر حروب محتملة وتعرض سلام الدول المتقدمة لخطر مصدره دول أفقر وأصغر وذات أنظمة سياسية سيئة».

وعندما يضاف إلى هذا انبعاث الحركات والمشاعر القومية المتعصبة ومذابح التطهير العرقي وعصابات المافيا والمخدرات، يمكن أن تتجلى واضحةً حساسية وتقلبات الوضع العالمي وخضوعه لمصادفات كثيرة كاندلاع حروب شاملة أو لتغيرات مفاجئة في موازين القوى السائدة. ويعتبر توفلر هذه الوضعية المنفلتة والعديمة التشكل سمةً أساسيةً للموجة الثالثة وليس مجرد رد فعل لانهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط جدار برلين.

---

(1) Alvin and Heidi Toffler: War and Anti-war - Survival at the Dawn of the 21 st. Century. Werner Books, London, 1994.

(2) الحياة ـ 21/ 10/ 1994.

(3) مدير معهد جون م. اولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفرد.

مقابل هذه الصورة التي يراها مثيرةً للتشاؤم، يقترح توفلر ايجاد استراتيجيات سلام تناسب «قواعد» حرب الموجة الثالثة. وفكرته عن السلام هي فكرة عملية ترتبط بالشروط الفعلية القائمة أكثر من ارتباطها بقيم اخلاقية مثالية. أي أنه يعتبر افتراض إحلال السلام من خلال إزالة الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والايديولوجية للحرب، افتراضاً طوباوياً. فبما أن الحرب قائمة دائماً ارتباطاً بتطور نمط الإنتاج الاقتصادي فإنه لا يصح تعليق السلام على نهايتها التي سوف لن تحصل يوماً. فالسلام ليس نقيضاً ميكانيكياً للحرب بل وجهها الآخر مثلما هي وجه آخر للاقتصاد. وعند مقارنته بسلام حضارة الموجة الثانية، ذلك الذي ساد منذ أربعين سنة، واستند إلى معاهدات ثنائية بين دول مستقلة وعلى وجود الأمم المتحدة للإشراف عليه دولياً، فإن سلام حضارة الموجة الثالثة يتأسس على ركائز مغايرةٍ تماماً. فوضع ما بعد الاستقطاب على الصعيد العالمي فرز حروباً أهلية بدل الحروب الوطنية بين دول مستقلة، وفسح المجال للشركات فوق القومية ولأديان بالظهور إلى الواجهة كقوى منافسة عالمياً، وأخيراً عزز دور المنظمات العالمية غير الحكومية كنواة لما يسميه توفلر مجتمعاً مدنياً عالمياً[1].

وأعد البنتاغون الأميركي ـ وزارة الدفاع ـ وثيقة رسمية تقول إن على الولايات المتحدة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي أن تحول في المستقبل دون قيام أي دولة أو مجموعة من الدول بتحدي الهيمنة الأميركية على العالم. وتدعو الوثيقة التي تقع في 46 صفحة إلى أن يكون الولايات المتحدة هو دور إقناع منافسيها المحتملين بأنهم ليسوا في حاجة إلى أن يلعبوا دوراً أكبر أو أن يسلكوا سياسة أعنف من أجل حماية مصالحهم المشروعة. وتقول الوثيقة أيضاً إنه من أجل تحقيق هذا الدور يتحتم على الولايات المتحدة رعاية مصالح الدول الصناعية المتقدمة من أجل تشجيعها على عدم تحدي القيادة الأميركية وعلى عدم محاولة تغيير النظام السياسي الاقتصادي العالمي. وفي تقدير الوثيقة أن هذا الأمر يتطلب اعداد قوة عسكرية خلال السنوات الخمس القادمة يبلغ عددها 1,6 مليون رجل وتبلغ

(1) الحياة ـ 21/ 10/ 1994.

نفقاتها 1,2 ألف مليار دولار. ومن خلال ذلك يبدو أن التوجه لتكريس الأحادية الأميركية على رأس النظام العالمي تحولت أو كادت تتحول من فكرة إلى مبدأ استراتيجي[1].

جاء صموئيل هنتنغتون بنظرية «صراعات الحضارات»[2] فاعتبرت نظريته أول محاولة جدية لملء الفراغ النظري الذي يفلسف سياسة ما بعد الحرب الباردة، ويحدد إطاراً عقائدياً لها. ومن السذاجة عدم توقع ظهور نظريات أخرى. ولكن بانتظار ذلك تبقى نظرية «صراع الحضارات» موضع جدل أخلاقي وفلسفي وديني وسياسي.

يمكن اختصار نظرية هنتنغتون بأنّ النظام العالمي السابق كاد يقوم على صراع بين ثلاث قوى رئيسة: الولايات المتحدة الأميركية ـ الاتحاد السوفياتي، والعالم الثالث. أما النظام العالمي الجديد ـ نظام ما بعد الحرب الباردة ـ فيقوم على صراع بين ثماني حضارات. هذه الحضارات هي: الحضارة الغربية، واليابانية، والكونفوشيوسية، والهندوكية والأميركية اللاتينية والأرثوذكسية السلافية والحضارة الاسلامية. وفي اعتقاده أيضاً أنه «يمكن» أن تُضاف إلى ذلك الحضارة الأفريقية.

وهو يرى أنّ الانتماء إلى حضارة ما، يتعدى الفوارق الإثْنية والحدود الوطنية. وأنّ الحضارات الثماني الكبرى تختزن قوى الصراع المستقبلي. وعلى هذا الأساس فهو يرى أنّ حروب المستقبل سوف تجد جَبَهات لها في نقاط التماس بين الحضارات وخاصة بين الاسلام وكل واحدة من هذه الحضارات على حدة.

يحدد هنتنغتون هذه النقاط على النحو الآتي:

* المواجهة بين الاسلام والغرب من خلال الصراع بين البوسنة وكل من

---

(1) Herald Tribune, 9-3-1993, No. 339911, p.1

(2) مجلة الشؤون الخارجية .Foreign Affairs 72: 3 (Summer 1993)

كرواتيا وسلوفينيا.

* المواجهة بين الاسلام والأرثوذكسية السلافية من خلال الصراع بين البوسنة وصربيا، وبين تركيا وكل من اليونان وبلغاريا.

* المواجهة بين الاسلام والهندوكية من خلال الصراع الهندي الباكستاني.

في الجوهر لا تختلف هذه النظرية الصراعية أو الصدامية عن صورة الصراع الذي كان قائماً طوال عقود الحرب الباردة، إلا من زاوية واحدة. وهي اضفاء بُعد أشمل على هذا الصراع من خلال استبدال الدولة الوطنية بالمجموعة الحضارية التي تنتمي إليها الدولة المعنية. فالصراع البوسني ـ الكرواتي أصبح صراعاً إسلامياً غربياً. والصراع البوسني ـ الصربي أصبح صراعاً إسلامياً أرثوذكسياً سلافياً. والصراع الباكستاني ـ الهندي أصبح صراعاً إسلامياً هندوكياً.. ويكاد التغيير الأساسي الوحيد ينحصر في اضفاء بُعد ديني على الصراع بدلاً من البُعد الايديولوجي السابق. فلا تزال القاعدة هي هي لم تتغير: الغرب ضد الآخرين. والجميع ضد الاسلام.

من أجل ذلك يدعو هنتنغتون الغرب إلى اعتماد أمرين أساسيين: الأول هو عدم الانخداع بالاسترخاء الذي ساد جبهات الصراع بعد انتهاء الحرب الباردة، وبالتالي عدم الإقدام على نزع التسلح أو وقف انتاج الأسلحة الأكثر تقدماً، والثاني هو المبادرة إلى دراسة حضارات الآخرين لاكتشاف العوامل المشتركة التي يمكن أن تشكل قاعدة لتفاهم أفضل يؤدي إلى تعايش أضمن.

وهنا أيضاً يبدو هنتنغتون في نظريته ابناً شرعياً لمرحلة الحرب البادرة التي تميزت بالأمرين معاً: زيادة التسلح، والبحث عن القيم المشتركة للتفاهم بين الكتلتين المختلفتين عقدياً (مؤتمر هلسنكي بين الشرق والغرب).

في الأساس يخشى هنتنغتون من أن يتغير ميزان القوى الحضاري لغير مصلحة الغرب. فهو ينظر بقلق إلى النهوض الاقتصادي الآسيوي في الصين واليابان وكوريا تحديداً وفي بقية دول الشرق الأقصى عموماً. ويرى أن هذا النهوض يشكل خطراً ليس فقط على مصالح الغرب بل على قيمه وثقافته أيضاً.

وتبين قراءة هنتنغتون للتاريخ أن الدول التي تحقق نمواً صناعياً سريعاً تبدي مزيداً من الثقة بالنفس. وهي تميل أحياناً إلى التوسع والاستعمار. «ويرى هنتنغتون أن الصين تريد أن تؤكد حضورها من جديد، فقد كانت على مدى ألفي عام القوة المسيطرة في شرق آسيا، ولكنها (ومنذ عام 1850) خضعت للهيمنة الغربية واليابانية. ولأنّ الصينيين يشعرون بالإهانة، فإنّ من الطبيعي أن يجدّدوا العمل من أجل الوصول إلى ما يعتقدون أنه مكانهم الطبيعي في العالم، ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى عدم الاستقرار.

وفي ردِّه على نظرية هنتنغتون، يقول الدكتور فؤاد عجمي[1] في مقال نشرته مجلة فورن أفيرز[2] «إن هنتنغتون يرى أنّ الدول ستُحارب من أجل الروابط والولاءات الحضارية، في حين أنها تتدافع بالمناكب من أجل حصصها في السوق، وتتعلم كيف تتنافس في اقتصاد عالمي لا يعرف الرحمة، وكيف توفر الوظائف وتتخلص من الفقر. ومن جانبهم، فإن «زعماء الادارة ودعاتها» ومن يؤمنون بأن المصالح بددت العواطف في عالم اليوم، يعرفون جيداً أنّ الناس يريدون سوني SONY وليس سويل SOIL (التربة أو الأرض بالانكليزية) وهناك قدر كبير من الحقيقة في ما يقولون، فقد ملّ الناس من الطوباوية، وأصبحوا أكثر نفوراً من الحملات التي تستند إلى المبادىء أو المعتقدات، ومن الصعب التخيل أن روسيا التي خربها التضخم ستتبنى القضية السلافية لإقامة «بيزنطية الثانية» حاملة راية المشعل الأرثوذكسي السلافي.

وأين هو العالم الكونفوشيوسي الذي يتحدث عنه هنتنغتون؟ ففي بلدان حافة المحيط الهادىء المشغولة والمزدهرة، تحول قدر كبير من الإيديولوجية والسياسة إلى اهتمامات مالية على نحوٍ جعل من دول شرق آسيا وُرَشاً حقيقية. لقد ماتت حضارة الكاثاي، وأصبح الأرخبيل أصمّ عن دعوة الراديكاليين الدينيين في طهران،

(1) استاذ دراسات الشرق الأوسط في معهد الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جون هوبكنز ـ الولايات المتحدة.

(2) Foreign Affairs, September - October 1993.

وهو يحاول اللحاق بماليزيا وسنغافورة. إنّ ريحاً مختلفاً يهب في بلدان المحيط الهادىء. فالقيادة والسيطرة هي في مجال الاقتصاد وليس السياسة، وإن العالم لأقل تطهراً مما كان يريده لي كوان يو، حكيم سنغافورة. والحقد قد يبقى متربصاً بكل الازدهار الذي جاء عقد الثمانينات به إلى المحيط الهادىء. لكن بلدان حافة هذا المحيط، التي لا ريب في أن مظلة الأمن الأميركية تحميها ـ ليست مستعدة للقيام بعملية توزيع كبيرة للمكاسب على الأمم، وعندما تثور المتاعب في ذلك العالم، فإنها ستتفجر داخل حدودها، وليس عبر الخطوط الحضارية.

حذر هنتنغتون من قيام تحد كونفوشيوسي ـ إسلامي مشترك للغرب من غير أن يستبعد وقوع صدام كونفوشيوسي ـ إسلامي ينطلق من منطقة زينجيانغ في الصين ويمتد إلى الجمهوريات الاسلامية في آسيا الوسطى. ويبرر هنتنغتون مخاوفه هذه أنّ العداء للغرب يجمع بين الاسلام والكونفوشيوسية الأمر الذي يشكل تحدياً خطراً للحضارة الغربية ولقيمها الإنسانية[1]، وأن السلاح والتقنية العسكرية قد تنقلان من الدول الكونفوشيوسية (الصين ـ اليابان ـ كوريا وغيرها) إلى الدول الاسلامية تحت مظلة هذا العداء المشترك.

في الأساس لا يخفي هنتنغتون إيمانه بأنّ النهضة الأميركية قامت على قاعدة وجود عدو خارجي. وأنّ هذا العدو الخارجي كان حتى نهاية الحرب الباردة هو الاتحاد السوفياتي. أما الآن فإنه يرى أن العدو الخارجي الذي لا بد منه لاستمرار العوامل المحرضة على النهضة والمحركة لها، يكمن في العلاقة الإسلامية ـ الكونفوشيوسية.

ويرد الدكتور عجمي على ذلك بقوله[2]: ان الأمم تغش: فهي تلعب بالهويات والمصالح وطرقها خسيسة. يثبت هذا تجارة السلاح وتهريبه من كوريا الشمالية والصين إلى ليبيا وايران وسوريا ـ فهذه الدول ستتماشى مع أي

(1) News Week - November 21, 1994.

(2) Foreign Affairs, September - October 1993.

حضارة، مهما كانت غريبة، ما دام الثمن مناسباً والسلع جاهزة. وهذا العمل الروتيني النابع من الأنانية يحوله هنتنغتون إلى «رابطة اسلامية ـ كونفوشيوسية» مشؤومة. بيد أن هناك تفسيرات أفضل: تجارة المارقين والقرصنة السافرة و«الاقتصاد السري» الذي يزيل الركود الذي يخلفه موردو السلاح الكبار (الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا وفرنسا).

يصوغ هنتنغتون نظريته الصدامية مع هذا العدو الجديد الذي يصطنعه على أساسين ثقافي وأمني. يقول الأساس الثقافي بوجوب استعادة وحدة الحضارة الغربية أولاً. وتقتضي هذه الاستعادة مكافحة التعددية الثقافية في الغرب وإحياء ثقافة غربية واحدة. أما الأساس الأمني فيقول بوجوب اعادة الصدقية إلى التحالف السياسي ـ العسكري ـ الثقافي في الكتلة الغربية (الولايات المتحدة ـ أوروبة الغربية). وهذا يقتضي بدوره العودة إلى الجذور الأوروبية في الحضارة الأميركية وتأصيلها وإبرازها والتمسك بها على حساب الجذور المستحدثة غير الأصيلة التي وفدت إلى هذه الحضارة عبر المهاجرين غير الأوروبيين الذين وفدوا إلى الولايات المتحدة من أميركا اللاتينية، والصين وفيتنام والهند وافريقيا والعالم الإسلامي.

في الوقت نفسه يدعو هنتنغتون إلى أمرين تكتيكيين. الأول هو إقامة تحالفات ذات طبيعة استقطابية لحضارات ضعيفة (اميركا اللاتينية ـ افريقيا) ضد الحضارات التي تشكل خطراً على الغرب وخاصة الاسلام، والثاني هو إعادة تكوين المنظمات الدولية (الأمم المتحدة ـ اليونسكو ـ اليونيسيف ـ البنك الدولي وغيرها) بحيث تعكس في سلوكها وفي التزاماتها قيم الحضارة الغربية ومصالحها.

في محاولاته لإثبات عداء الإسلام للحضارة الغربية يقدم هنتنغتون أمثلةً انتقائية تعكس نصف الحقيقة فيما يتعمد إخفاء أو تجاهل النصف الآخر. فهو يقدم العراق مثلاً نموذجاً للعداء للغرب ولكنه لا يتساءل عن طبيعة النموذج الذي يشكله صراع العراق مع دول مجلس التعاون الخليجي، ومع ايران، بل ومع بعض الأقليات الاسلامية العربية مثل الشيعة في الجنوب، والأقليات

الاسلامية غير العربية مثل الأكراد في الشمال.

ويقدم هنتنغتون كذلك البوسنة نموذجاً آخر للعداء للغرب. ولكن لا يذكر شيئاً عن معنى الصراع الصربي ـ الكرواتي. ويقدم السودان نموذجاً آخر للعداء مع افريقيا (جنوب السودان) ولكنه يتوقف أمام الصراعات الأفريقية الأخرى في رواندا وليبيريا وزائير حيث لا يوجد للاسلام أي دور أو حضور. وحتى في الصومال حيث لا يوجد مع الاسلام ديانة أخرى ولكن ذلك لم يحقق للمجتمع الصومالي الوحدة التي يصبو إليها.

فالصراعات داخل الحضارة الواحدة، وداخل الدين الواحد، ربما يفوق عددها، عدد الصراعات بين المجموعات الحضارية أو المجموعات الدينية.

يقول هنتنغتون في نظريته أن العالم ينتقل من الصراع السياسي ـ الايديولوجي الذي كان أساس الحرب الباردة في الصراع الثقافي الذي يشكل أساس الحضارات. ويبرر ذلك بقوله: «إن ما يهم الشعوب ليس المصالح الاقتصادية أو السياسية العقدية، بل إن ما يهمها هو الإيمان والعائلة والدم والمعتقد.. وهذا ما يميز الشعوب عن بعضها ويدفعها للقتال وللموت. من أجل ذلك فإن صراع الحضارات يحل محل الحرب الباردة كظاهرة مركزية في السياسة العالمية»[1]. ويعني ذلك أن الاختلافات الثقافية أشد استعصاء على التوفيق من تضارب المصالح الاقتصادية، وهذا أمر مبالغ فيه، بل إنه أمر غير صحيح في الأساس.

إن الهنود والمسلمين لا يتقاتلون لأن الهنود يعبدون البقر والمسلمون يأكلون لحومها؛ هناك إمكانات واسعة لصياغة أنظمة توفق بين محبي البقر وآكليها، بين الذين يتعبدون في الهياكل والذين يتعبدون في المساجد بحيث يعترف أحدهما بشخصية الآخر ويتعامل معه من دون مذابح. إن العوائق الأساسية للسلام الهندي ـ الاسلامي في الهند لا تكمن في قيم ثقافية لا يمكن التوفيق بينها، بل إنها تكمن في ظروف اقتصادية واجتماعية تجعل كل طرف يعتقد أنه لا

(1) Samuel P. Huntington «If not Civilization, what?» Paradigms of the Post - Cold war World». Foreign Affairs, 72: 5 (November - December 1993).

يستطيع أن يعيش إلا على حساب الآخر. ومن دون تغيير الظروف التي تجعل من المستحيل إشباع الحاجات الانسانية الأساسية، فإن صراعاتٍ من هذا النوع لا يمكن حلها[1].

ولا يبدي الدكتور فؤاد عجمي في رده على هذه القضية أي قلق في أن يتم تغيير الظروف في الهند على حساب النظام العلماني إلى نظام هندوسي مغلق. وهو يقول: «إن الهند لن تصبح دولة هندوسية لأن تراث العلمانية الهندية سيصمد. فالطبقة الوسطى الواسعة النطاق ستدافع عنه، وستبقي على النظام سليماً بغية الحفاظ على مكانة الهند ـ الخاصة بها ـ في عالم الدولة الحديثة. إذ إن في تلك الدولة المتسمة بحالة من الفوضى خوفاً غريزياً من اللعب بالنار التي قد تحرقها. وقد تجعل الشوفينية الهندوسية الحياة العامة للبلاد خشنة، لكن الدولة والطبقة الوسطى التي تقوم عليها تعرفان أن الانعطاف إلى التعصب الديني هو اندفاع إلى الخراب، علماً بأن الطبقة الوسطى الواسعة الحيلة تشارك في تبني الثقافة والقواعد العالمية. ولقد انصرم قرن من الزمان منذ أن طالبت البورجوازية الهندية، من خلال أداتها السياسية، حزب المؤتمر الوطني الهندي، بالهند لنفسها، وبمكانة للهند بين الأمم. ونتيجة لهذا النضال الطويل من أجل التخلص من الحكم البريطاني والنضال الموازي ضد «الطائفية» بنى المدافعون عن الفكرة القومية دولة كبيرة ودائمة، ولن يتخلوا عن كل هذا لمملكة سياسية للنقاء الهندوسي.

لقد سمعنا الكثير من أنصار التقاليد، لكن ينبغي ألا نغالي في قوتهم. بيد أن التقاليد تصبح عادة أكثر إلحاحاً وأعلى صوتاً عندما تتحطم، وحين لا يعود الناس يؤمنون بها حقاً، وعندها تفقد العادات القديمة العهد قدرتها على إبقاء الرجال والنساء في ديارهم. إن الظاهرة التي وصفناها بالأصولية الاسلامية هي علامة ذعر وارتباك واحساس بالذنب من أن الحدود مع «الآخرين» قد تم عبورها،

(1) Richard E. Rubenstein and Farle Croker: Challenging Huntington, Foreign Policy, N. 96, Fall 1994, p. 128.

أكثر منها علامة على الانبعاث. فهل يمكن أن نرى في هؤلاء الشبان المتدينين الفقراء، انصاف المتعلمين في مدن العالم العربي، ومبشريهم الذين تعلموا في السوربون، عودةً حقيقية إلى التقاليد؟ لقد حطم هؤلاء أبواب أوروبا وأميركا بحثاً عن الحرية والعمل، وتمردوا على خطايا الغرب، ومن السهل فهم إحباط هنتنغتون إزاء هذا النوع من التعقيد وإزاء ذلك الخليط الغريب من الجاذبية والنفور اللذين يغذيهما الغرب، وحاجته إلى تبسيط الأمور، وترسيم حدود الحضارات».

كثيرة هي نقاط الضعف في نظرية هنتنغتون خاصة عندما يحاول أن يطرح الاسلام عدواً بديلاً عن الشيوعية. من نقاط الضعف هذه وقوعه في أسوأ ما وقع فيه عالم الاستشراق من تقاليد، إذ فرز الشرق وشعوبه على أساس واحد وهو الدين. وانطلق من عملية الفرز الخاطئة هذه ليربط الدين ـ المعاصر ـ بالرجعية والإرهاب، ومن ثم ليقدمه ديناصوراً متوحشاً قادماً من «جوراسيك بارك».

ومن نقاط ضعفه كذلك أنه يلغي المسافة القومية بين العرب والفرس، ويتجاهل الحضور المسيحي العربي المتميز عن الإسلام العربي. كل ذلك من أجل أن يضخم من حجم هذا الديناصور الوهمي الذي يهدد الحضارة الغربية.

إن العالم الاسلامي على حد قول الرئيس الأميركي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه «اقتناص اللحظة»[1]: «يضم حوالي 850 مليون إنسان يشكلون سدس البشرية ويعيشون في 37 دولة. ويبين نيكسون كيف أن المسلمين ينقسمون إلى 190 إثنية ويتكلمون مئات اللغات واللهجات، وهم ينتشرون على طول عشرة آلاف ميل من المغرب إلى اندونيسيا الاستوائية». ويقول نيكسون في كتابه: إننا نتحدث عن العالم الاسلامي كشخصية واحدة ليس لأنه يوجد مكتب سياسي يوجه شؤونه السياسية (يبدو أن هنتنغتون يعتقد العكس في نظريته) ولكن لأن كل الأمم الاسلامية تشترك في تيارات سياسية وثقافية تصب

(1) Richard Nixon, Seize The moment, American challenge in a one super power world, (Simon & Schuster, N.Y. 1992) p. 196.

في مجموع الحضارة الاسلامية.

ومن نقاط ضعفه أيضاً ما يلاحظه وحيد عبد المجيد[1] في دراسة نشرتها جريدة الحياة[2]. وهي أن هنتنغتون، وفي اطار اهتماماته بالتعريف الذاتي للهوية، يسجل حقيقة أن الناس لديهم في العادة عدة مستويات من الهوية يعرفون أنفسهم بها، فالايطالي مثلاً يعتبر نفسه ايطالياً وكاثوليكياً ومسيحياً وأوروبياً وغربياً. ووفقاً لهذه الأطروحة، فإن التعريف الأوسع هو الذي يحدد الانتماء الحضاري، وربما يكون هذا صحيحاً في أحوال كثيرة، لكنه ليس القاعدة. فمثلاً لا يرى كل المسلمين أنفسهم منتمين للحضارة الاسلامية، فبعضهم ينتمي بوجدانه إلى الحضارة الغربية، وقد يكونون قلة، لكنّ أكثرهم يحدد هويته عند المستوى الوطني (اتراك أو لبنانيون أو مصريون مثلاً) أو عند مستوى اقليمي فرعي (شوام أو خليجيون أو مغاربيون) أو قومي عربي (عرب) كما أن بعضهم يحدد هويته وفقاً لحضارات قديمة ما قبل إسلامية (فرعونية أو فارسية)، كما أن هذا التعريف قابل للتغير، فبعض المصريين مثلاً ممن كانوا لا يترددون في تعريف أنفسهم كعرب في وقت سابق، لا يحبون هذا التعريف الآن. وقد شهدت مصر في نهاية السبعينات جدلاً ساخناً حول عروبتها، وهي التي كانت تعتبر نفسها قبل سنواتٍ منه قلعة العروبة.

ومعنى ذلك أن التعريف الذاتي قابل للتحول حتى إذا صحت محاباة هنتنغتون بأن غالبية الشعوب غير الغربية متمسكة بثقافاتها الموروثة وأن نزعة الإحياء الديني الأصولي في معظم الحضارات الآن تدعم هذا التمسك.

ولعل إغفال هنتنغتون لدور الدولة في الصراعات المستقبلية باعتبار أنها الوحدة الواقعية والحقيقية التي يتشكل منها المجتمع الدولي، هو أكثر من نقطة ضعف. إن للدول هويةً سياسية ووطنية تتمسك بها. ولها مصالح اقتصادية تدافع عنها. وهي في الأمرين معاً قد تتجاوز مستلزمات انتمائها إلى

(1) رئيس وحدة الشؤون العربية في مركز الدراسات الاستراتيجية بالأهرام.
(2) جريدة الحياة، 17/ 8/ 1993.

حضارة واحدة. ويتكرس هذا التجاوز في صور كثيرة لعل أبرزها التجمعات الاقتصادية التي تضم دولاً من حضارات وأديان مختلفة.

قد لا يكون مستغرباً أن يصدر رد قاس على نظرية «صراع الحضارات» من فرنسا، نظراً للتناقض في المقاربة الحضارية بين فرنسا والولايات المتحدة من قضايا العالم المختلفة. وهو تناقض يتكرس كل يوم بين المنطق الانكلوسكسوني والمنطق الفرنكوفوني، ويذهب مسؤولون فرنسيون بعيداً إلى حد الاعتقاد بأن ثمة تواطؤاً بين الانكلوساكسون والآسيويين للإطاحة بالحضارة الأوروبية[1]. ويعكس بيار جوكس رئيس مركز الأبحاث الإستراتيجية التابع للحكومة الفرنسية[2] وجهة نظر فرنسا فيقول[3]: «تعني فكرة انهيار الولايات المتحدة أن على الولايات المتحدة بذل المزيد من المجهود، أي أن تكون أكثر ذكاء وذات استراتيجية أكثر نباهة. وكما نلاحظ أن الولايات المتحدة لم تقدم أي تنازل على المستوى الاقتصادي ولم تقم بعمليات عسكرية فعلية، وحتى إذا حضرت عسكرياً فهي تعلن سلفاً أنها ليست باقية. فالفكرة هي أن تكون الولايات المتحدة «الزعيمة» بأقل جهد يبذل وتركز فكرة الانهيار على أن دور الزعامة يتطلب مجهوداً كبيراً وإلا حصل قصور في الطاقة. ومتطلبات هذا المجهود تقضي على مرتكزات التفوق. ولتجنب الوقوع في هذا المأزق يجب التمكن من إدارة القوى الخارجية التي تقوم بهذا الدور مكانها، أي اتباع الحكمة الصينية «الحكم بأقل مجهود ممكن». والفترة الوحيدة التي تصرفت أميركا فيها تجاه عدو استراتيجي كانت أثناء الحرب الباردة مع الروس، وهناك سؤال يطرح حول حقيقة هذا الصراع، نظراً للحالة الاحتفالية بسقوط الستار الحديدي. ومع نهاية العدو السوفياتي كان لا بد من خلق أعداء جدد، كالاسلام مثلاً، وحتى هنتنغتون، الباحث المثقف الذي حتى عندما يقول أشياء

---

(1) Gerald Sagal: This Rhetoric About Clash of Civilizations can only Hurt Asia, Herald Tribune, 9-10/10/1993.

(2) بيار جوكس، مؤلف كتاب «أميركا المرتزقة».

(3) جريدة الحياة، 21/ 10/ 1994.

عقيمة وبلهاء، ويكون ذلك عن قصد، فإنه أنتج نموذجاً صالحاً للبيع سماه صدام الحضارات، الذي يسمح بإرساء هيكلية تعيد التناغم إلى هذا العالم.

إن هنتنغتون لا يقول إن صدام الحضارات شيء قبيح ومبتذل. فهذا الصدام ليس سياسياً. لكنني كوني من أبناء التنويريين أجد في هذه النظرية تراجعاً كارثياً، أي بدل أن نتكلم في السياسة، نقوم بتمثيل الحوار الديني، لأن الكلام في الواقع اقتصادي. وبرأيي أن «صراع الحضارات» نظرية خبيثة، شعبوية، وذات دهاء مركب قائم على ايديولوجيا تجد صدى كبيراً عند الجماهير والجماعات. وهنتنغتون يحاول القول أن العالم مقسوم قسمين مما يعني أن تركيبته مختلفة جذرياً عما لو كان مقسوماً إلى ثلاثة أقسام: أي لو أنه ترك مجالاً لقسم حيادي ومؤسسي».

ويلتقي د. فؤاد عجمي مع هذا التحليل في رده على مقالة هنتنغتون[1] حيث يقول: إن الحضارات تحشر في الزوايا والشقوق ـ ونقاط التفتيش ـ في البلقان. وهو يمضي إلى حيث لا يغامر إلا الشجعان إلى ذلك الحزام من السكان المختلطين الذي يمتد من الادرياتيك إلى البلطيق. وهناك يصنع عدد لا نهاية له من القوميات أوطاناً لهم وكلهم لحقهم الضيم، ولديهم جميعاً ذكريات عن ماض اسطوري ومستعدون بالمثل للاستماع إلى المضللين الذين يدعون أنهم سيقوّمون الخريطة الملتوية. وهو يجد في ادغال هذه الحركات الجامعة الخط الذي رسم «الحد الشرقي للمسيحية الغربية عام 1500». «إن التدافع بالمناكب على الساحة بين القومية الكرواتية ونظيرتها الصربية، ومشروعهما المشترك لتقطيع أوصال البوسنة، تحول عنده إلى حرب بين ورثة روما وبيزنطية والإسلام».

في الوقت الذي يبني هنتنغتون نظريته لمرحلة ما بعد الحرب الباردة على قاعدة «صراع الحضارات» تبرز نظريات أكثر أهمية ولكن أقل إثارة للضجيج تدعو إلى قيام حضارة إنسانية جديدة مفتوحة بلا حدود تخلّف وراءها الدوغما الإيديولوجية أو الدينية والعقلية القبلية والنفسية التدميرية[2].

---

(1) Foreign Affairs, September - October 1993.

(2) Ryszard Kapuschinsky, New perspective Quarterly, Volume 11-2, Spring 1994.

بالطبع يقتضي تحقيق هذا الهدف الإنساني الكبير إعادة نظر غربية في أسس ومقومات الحضارة الغربية، بمعنى التوقف عن اعتبار هذه الحضارة هي الأمثل؛ والتوقف من ثم عن محاولة فرض نسقها على الآخرين وإلغاء حضاراتهم بكل ما تزخر به من قيم.

يلاحظ المفكر المغربي محمد عابد الجابري إن الحرص على الهيمنة على عصب الحياة في الاقتصاد العالمي المعاصر ـ النفط ـ دفع ويدفع بكثير من المحللين الغربيين إلى بناء سيناريوهات عدوانية تماماً تتجه مباشرة وبكل صراحة إلى «الاسلام» لا بوصفه مجرد دين بل لكونه عنصر تعبئة يمكن أن يوظف ضد الهيمنة التي يمارسها الغرب اقتصادياً وثقافياً. مما يجعل ظاهرة «الاختراق الثقافي» تكتسي وضعاً خاصاً بالنسبة للعالم العربي والاسلامي. وضعاً يطبعه لا «فعل الاختراق» وحسب بل أيضاً «ردود الفعل» الدينية عليه.

ويقول: «ومن هنا ذلك الاتجاه الذي يسود الغرب اليوم والذي يتجه إلى إحكام سيطرته على العالم العربي والاسلامي بالعمل على ضرب ما يرى فيه المحللون الغربيون الوسيلة التي يمكن أن تكون اليوم أو غداً سلاحاً لتعبئة الجماهير المحرومة ضد الهيمنة الاقتصادية والثقافية التي يمارسها الغرب، نقصد بذلك ما نشاهده اليوم من هجوم صريح في الغرب على «الاسلام»، الاسلام لا كمجرد دين بل كقوة معينة للجماهير، تماماً كما كان الشأن من قبل مع فكرة: «القومية العربية» وفكرة «الاستقلال» وغيرهما من الأفكار والشعارات التي عبأت الشعوب في معركتها من أجل التحرر الوطني»[1].

لقد تميزت الحضارة الاسلامية بقدرتها على التكيف مع وعلى التعلم من الحضارات الأخرى. ولم تمارس في أي مرحلة من مراحلها دوراً الغائياً أو امتصاصياً للحضارات الأخرى. أما الحضارة الغربية فإنها تؤمن بفوقيتها وتحاول أن تفرض نفسها انطلاقاً من هذه الفوقية على كل الحضارات الأخرى. وبالتالي فإن المشكلة الجوهرية لا تكمن في رفض الحضارات

(1) جريدة الاتحاد ـ أبو ظبي ـ 23/ 2/ 1994.

الضعيفة المتراجعة التكيّف، بقدر ما تكمن في اصرار الحضارة الغربية بفوقيتها وليس بتفوقها على الامتصاص والإلغاء.

يعترف لوريت اوكتافيو باز (الحائز على جائزة نوبل) إن فشل الفلسفة الغربية في القرن العشرين يعود إلى عجزها عن تقديم صيغة مركبة من تياريها الفلسفيين، الليبرالية والماركسية، بحيث تركت الحل الوحيد في الامتصاص أو الاستسلام. والآن بسقوط الماركسية حاولت الفلسفة الغربية أن تنهي التاريخ بانتصار الليبرالية، مما يعني إلغاء كل القيم الأخلاقية والتنظيمية التي تزخر بها الحضارات الأخرى، وخاصة الحضارة الاسلامية. وكما لاحظ طارق بنوري المدير التنفيذي لمعهد دراسات الإنماء السياسي في اسلام اباد ـ باكستان، «فإن الكتّاب الغربيين يواصلون تقديم الاسلام على أنه مرادف للأصولية والارهاب. هذه الكتابات تنطلق من شعور عميق بعداء يكمن في اللاوعي، يصور الاسلام على أنه الجانب الشرير والجاهل في الحضارة الغربية. وتصور هذه الكتابات الغرب على أنه العقل والاسلام على أنه الجسد. الغرب على أنه الثقافة، والاسلام على أنه الطبيعة. الغرب على أنه مذكر، والاسلام على أنه مؤنث. وفي المحصلة الأخيرة يبدو الاسلام وكأنه مثير للغضب والهيجان والعنف والارهاب، وكلها غرائز جسدية؛ وهي تحتاج وفقاً لمفهوم العصرنة إلى التدجين. وفي الوقت نفسه يرفض المفكرون الغربيون القبول بشرعية أي فكر أو قيم أو معرفة تصدر عن الاسلام، فهل يمكن التعلم من الجسد؟ بهذا المعنى، يصبح الاسلام عن حق «الآخر» البسيكولوجي للحضارة الغربية. ويجري التعامل معه على هذا الأساس، وهو الأساس الذي أقام عليه هنتنغتون نظريته الصدامية مع الحضارة الاسلامية»[1].

في صيف 1994 نشرت مجلة الايكونوميست البريطانية تحقيقاً يقع في 18 صفحة تحت عنوان «الاسلام والغرب»، أكدت فيه أنه خلافاً لما يعتقد كثيرون فإن إيديولوجيات الطرفين ليست غير قابلة للتوفيق. وهي تؤكد أن الوضع الحالي قابل

(1) Tariq Banuri, Justice is the Strife. N.P.Q. volume 11-2 Spring 1994

للتغيير. وأن التغيير يتطلب أولاً تفهماً اسلامياً لحقائق الحياة العصرية. وأن هذا التفهم يتطلب من الأوروبيين أن يفتحوا عقولهم على حقيقة مركزية سياسية تدور حول «العلاقة بين المسؤولية الفردية والانتماء الجماعي». ورأت المجلة أنه إذا تحقق ذلك فإن الاسلام والغرب سوف يكتشفان أنهما زاخران بالأفكار المشتركة، وأنهما يستطيعان أن يعيشا بسلام معاً، بل وأن يعملا معاً من أجل تحقيق أهداف مشتركة.

ورأت المجلة أن القرن المقبل يحمل في طياته إمكانات مقلقة لكليهما. روسيا المجرومة اللحم عن العظام هي واحدة من النتائج المتوقعة لحالة فوضى ما بعد الاتحاد السوفياتي. وروسيا بهذه الحالة سوف تكون جاراً خطيراً على مساحات واسعة من كل من أوروبة والاسلام. إن فوضى ما بعد الحرب الباردة التي تجتاح افريقيا السوداء قد تزداد سوءًا عما هي عليه الآن. وفي مصلحة المسلمين والأوروبيين أن يتعاونوا لإنقاذ هذه القارة غير السعيدة، وفوق ذلك فإن المنطقة الكونفوشيوسية في شرق آسيا قد تشهد بروز قوة القرن الواحد والعشرين، وهي قوة لا يزال قادتها يؤمنون بايديولوجية مغايرة للاسلام وللغرب[1].

وتخرج المجلة البريطانية عن ذلك باستنتاج أساسي وهو «ان الصراع الطويل بين الصليب والهلال بدأ في عالم صغير حيث لم يكن باستطاعة الاسلام أو الغرب أن يرى خصماً آخر. وفي العالم الأوسع الذي يعيشان فيه اليوم فإن الوقت قد حان لوضع حد نهائي لذلك.

قد يكون الصراع أمراً لا يمكن الغاؤه نظراً لطبيعة النفس البشرية الأمارة بالسوء. ولكن ليس هذا هو المهم، المهم هو كيفية التعامل مع الصراع ومعالجته، عن طريق تحقيق العدالة بين الحضارات، وداخل كل حضارة. وعن طريق تحسين مستوى الحكم ورفع مستوى التواصل المتوازن بين الدول المختلفة. وكذلك عن طريق تحرير المؤسسات الدولية من الهيمنة والاخضاع

(1) Economist, August 6 th., 1994

وتمكينها من أن تمارس دور الموفق بين الدول والحضارات.

إن عالم ما بعد الحرب الباردة يتوجه بحوافز اقتصادية وإنمائية نحو تشكيل تجمعات تتجاوز ليس فقط الحدود السياسية للدولة ـ الأمة، بل تتجاوز حتى حدود الحضارات الثماني التي وضعها هنتنغتون في حالة تصادمية. فالولايات المتحدة تقيم من جهة أولى تجمعاً اقتصادياً مع المكسيك وكندا؛ وتقيم من جهة ثانية تجمعاً اقتصادياً آخر مع دول المحيط الهادىء (قمة سياتل ومن ثم قمة جاكرتا)، فأين الصراع مع حضارة أميركا اللاتينية؟.. أو مع الحضارة الكونفوشيوسية؟.. كذلك فإن أوروبة الغربية تتطلع باهتمام أشد إلى جنوب البحر المتوسط على أنه المدى الاستراتيجي للسوق الأوروبية المشتركة إزاء المشاريع الأميركية الجديدة: فأين الصراع مع الحضارة الاسلامية؟.

جرت محاولتان لتعامل الغرب مع الحضارة الاسلامية. توسلت المحاولة الأولى امتصاص الاسلام، وتوسلت الثانية عزله. وقد منيت المحاولتان بالفشل. وتؤسس نظرية هنتنغتون لمحاولة ثالثة تقوم هذه المرة على الصراع والمواجهة، والهدف من ذلك، كما كان في السابق ـ هو التهميش إلى حد الإلغاء.

لم تحقق المحاولتان السابقتان ولن يحقق مشروع المحاولة الجديدة أي انتصار حضاري للغرب. لقد آن الأوان لوضع حد للنظريات الصدامية بالحضارة الاسلامية، وللاعتراف بها وللتعامل معها على أنها تيار كبير يصب في الحضارة الإنسانية الشاملة.

إن تغيير النظرة الاستعدائية والتخلي عن التصنيف المتوارث من مخلفات استشراق القرون الوسطى، وإعادة النظر في أسلوب التعامل الفوقي مع الحضارة الاسلامية، كفيل بفتح صفحة تغني الإنسانية بالمستلزمات الروحية للتقدم التقني.